خبايا

أية اسماعيل

في إحدى مشافي السجون الخاصة بالأمراض النفسية والعصبية، حيثُ تتحركن النسوة اللاتي يرتدينَّ زيا عسكريا وبصحبتهن السجينات اللاتي يرتدينَّ عباءة بيضاء وطرحة من نفس اللون، فجميعهنَّ متشابهات في الزي بل والملامح الغامضة والمريبة أيضا! تحدثت إحدى الأمينات الى السجينة التي في محاذاتُها بصوت مرتفع وهي تتجه الى غرفة الطبيب النفسي:

_ تحركِ أيتُها البليدة

لم تلتفت لها المرأة الخمسينية ولم يظهر على وجهها الذي يكسوه الأرق والشحوب أيَّ تعبير، دقائق ودخلت كلتاهما إلى غرفة الطبيب، تحدثت الأمينة بدورها إلى الطبيب قائلة:

_ السجينة " عصمت " حضرة الطبيب.

ما أن قرعت جُملتُها أذنيه حتى هبَّ واقفا من على مقعده وهو يُحدق في المدعوة "عصمت " فبدت نظراته غاضبة وحاقدة، ظل على حاله لثوانٍ ثم جلس، وتحدث للأمينة قائلا:

_ تستطيعين الخروج.

التفتت إلى المسجونة وقامت بفك قيدها ثم استدارت وخرجت، نظر لها وهو يحاول ضبط أعصابه:

_ أنتِ السجينة "عصمت فخر الدي " منذ خمسة عشر عاما وانت تقضين عقوبتكِ هنا في المصحة ... حيثُ حُكمَّ عليكِ بالسجن لأنكِ تدعينَّ قتل ولدكِ و.....

بترَّ كلماته حينما وجدها ترمقهُ بنظرات نارية وقد اغرورقت عيناها بالدموع، فحاول تغيير الحديث:

_ إن رغبتي في الحديث فأنا هنا لخدمتكِ ومُحاورتكِ.

ثم قام واتجه نحو الثلاجة الصغيرة، أخرج منها زجاجتين من العصير، وضع واحدة بجوارها وفتح الأخرى ليشرب منها وهو يعود إلى مقعده ليتفاجأ بصوتُها يأتيهِ بحنو:

_ أنتَ تُشبهه كثيرا

رفع الزجاجة عن شفتيه بانفعال وهو يحدق بها ثم قال:

_ من أُشبه؟

ردت بابتسامة

_ " كامل " إبني

وضع الزجاجة على المكتب وجلس ثم أردف:

_ الذي قتلتِ ... أليسَ صحيحا؟

أمعن النظر بها وأكمل:

_ حيثُ جعلتيه يودع حياته مُخلفا وراءه ابنا في الرابعة من العمر وزوجة وأبا شيخا كبيرا لا يقوى حتى على الحراك.

سألته في سرعة:

_ من أنت؟

رفع الملف الخاص بها وأجاب:

_ الطبيب الجديد هنا

ردت بثقة:

_ لستَ كذلك فأنا اشعر بأنك تعرفني

قال بثبات

_ يُخبرني حدثي بأنكِ في قمة العقل وانكِ تدعين الجنون أو الصرع خشية أن يحكوا عليكِ بالإعدام.

ثم أكمل:

_ أخبريني كيف تقوم أم بقتل ولدها؟!

ردت والدمع ينهمر على وجنتيها؟

_ لم أكن أعلم أن الذي يخضع للعملية هو إبني

هز رأسه وهو يقول:

_ نعم... نسيت أنكِ كنتِ تعملين كتاجرة في الأعضاء... وآخر من أخرجتي أحشائه هو ابن أحشائك.

احمر وجهها وأخذ جسدها ينتفض ليتدفق اللعاب من فمها بشكل مقزز ومخيف، نظر لها لثوان ثم استدعى الأمينة و بعض الممرضات اللائي قمن بحملها و وضعوها في العنبر الخاص بمثل حالتها و قيدوها في الفراش، كان ينظر لها و هو يهمس لنفسه قائلا ((بئس الأم)).

****

في مســاء نفس اليوم كان جالســا على فراشــه وبجواره زوجته التي قالت بشك:

_ أأنت على ثقة يا " عثمان " من أنها جدتك؟

أومأ برأسه دون رد فأكملت:

_ إياك وإخبار والدتكَ بالأمر، فهي ما إن تعلم حتى تُرغمك على قتلها أو هي من ستفعل.

أمسك الوسادة وهب واقفا ثم ألقاها على الفراش واتجه إلى الشرفة وهو يزفر بغضب.

مرت فترة كان يلتقي بجدته " عصــمت " ولكنها لم تكن ترغب في الحديث معه.

وبعد يومين آخرين من أخر لقاء صامت، قررت اليوم أن تفصح عما في جعبتها، نظر لها وهو يجلس على مقعده وهي تجلس أمامه، حثها قائلا:

_ أسمعُك

نظرت له:

_ انا " عصمت فخر الدين " فتاة من الطبقة المتوسطة تقطن في حي الســيدة عيشــة... حصــلت على قدرٍ من التعليم الذي جعلني التحق بمعهد التمريض الذي أهلني للعمل في إحدى المشــافي الحكومية، كنتُ نشيطة ومميزه في عملي، كما أني أحبه بشده. بعد عامان تزوجت، وشاء القدر أن أُنجب بعد عشرة أشهر من زواجي مباشرةً، طلب زوجي أن أترك العمل لأجل نجلينا و لكنني أبيت،

فهددني بالطلاق، حينها كان الطبيب الذي أعمل معه في المشـــفى معجبًا بي و أخبرني أنه يريدني أن أعمل معه في إحدى المستشفيات الخاصة و سأتقاضى أضعاف مرتبي، اغرتني الفكرة و انفصلت عن زوجي و تزوجت بالأخر، ولكنه رفض أن يسكن إبني معنا متحججا:

_إننا سنتزوج في السر فكيفَ يسكن معنا ولدُكِ؟

وافقت على ترك رضـــيعي مع والده وأوليت ظهري لكل شيء، كنت قد بدأت العمل معه في المشـــفى الجديد، ولكنني أدركت الأمر فيما بعد...

قاطعها قائلا:

_ تقصدين التجارة في الأعضاء؟

أومأت برأسها وأكملت:

_ كان المريض يخضـع لعملية اسـتئصـال المُرةِ الصـفراء وبعد أن انتهينا وجدته يقوم بفتح مكان الكلي، سألته عن الأمر فأجابني قائلا:

_إننا ســـنجني الآلاف من هذه العملية وكل ما عليكِ هو الصـــمت ومتابعة عملكِ دون ثرثرة، وعندما هدته بأنني سـأخبر المدير بالأمر ضـحك قائلا: إن المدير على دراية بالأمر، كما هددني بإبني الوحيد. سـكتّ وانتهت العملية وعندما تقابلنا في الشـقة التي اعتدنا اللقاء بها أخبرته بأنني أريد الانفصـــال عنه، فعاد لتهديدي، كما أغراني بالمال...

نظرت لـ " عثمان " بعينين متسعتين دهشة وهي تقول:

_ فلقد حصلت على ألف ومئة وخمسون جنيه!

علق عثمان بعدما دونَ بعض الكلمات:

_ وبالطبع انتشيت بالمال.

أومأت برأسها:

_ مع كل عملية من هذا النوع كان المال يزيد، فأصـــبح لجراحي كما المخدر ومع الوقت لم أعد أشــعر بأي تأنيب ضــمير، بل أكاد أجزم بأنني مزقته إلى أشــلاء مع كل تمزيقه في جســد أحدهم. واســتحللَّ عليَّ للواقع كُليا، فبعد أن كنتُ رهن اشارة منه وأسأله كل احتياجاتي أصـبحتُ امتلك الألاف وأصـبحتُ أتقن الأمر، بل عندما تأخر ذات مرة على الموعد قمت أنا وأحد الأطباء الجدد في الأمر بها وتقاضيت عليها مليون جنيه.

أكملت بصوت هادر:

_ وعلمت يومها كم كان يســـتهزئ بي ويعطيني بقاياه من المال، وبسبب الأمر حدث شجار بيني وبينه فقررت التخلص منه.

أردف " عثمان " وقد بدت الدهشة على عينيه:

_ قمتي بقتله؟!

هزت رأسها نافية:

_ بل جنيت من ورآءه عشرة ملايين بمفردي.

سألها بعدم استيعاب:

_ تاجرتي بأعضائه؟

ردت بقوة:

_ فعلت

تبسم بسخرية وهو يهز رأسه يمينا ويسارا وهو يقول:

_ (اعمل يا ابن آدم كما شئت فإنه كما تدينُ تُدان)

أتاهُ صوتها مرتعشا، وبدأت أطرافها في الاهتزاز كما ارتعشتا شفتيها وهي تقول:

_ لكن لمَّ كان سداد ديني في ولدى الوحيد الذي لم أراه في حياتي إلا بضع مرات؟

حدق بها وهو يتذكر الامر الذي غفل عنه لدقائق، فأتاه صوتها باكيا:

_ لقد قمت بإخراج أحشائه بيديَّ هاتين....

قالت جملتها الأخيرة وهي ترفع كفيها للأعلى وتحدق بهما وهي تكمل

_ ليتني متْ ... ليتهما شُلتا..

ثم أخذت الدمعات تنهمر على مقلتيها وهي تكمل:

_ لمَّ لم يحدث هذا لي... لمَّ لم أمت أنا؟؟؟

استمع " عثمان " لكلماتها وهي تختنق، كان يشعر بالنيران تشتعل في جسده تمنى لو قام الأن وأخرج أحشائها بيديه، شيء واحد ردعه عن فعل هذا.... أنها وبكل أسف (جدته)! التي تربي على بُغضها وكُرهها منذُ نعومة أظافره، كانت "عصمت " تبكي وتلطُم وجهها بكفيها وهي تقول:

_ بئس الأم أنا... بئس الأم والزوجة والابنة

أكمل عنها هو بنبرة حادة وكأنه يزأر:

_ والجدة أيضا؟؟؟؟

أصابتها الكلمة بسهم في منتصف قلبها، شعرت وكأن الارض تميد بها، توقفت عما كانت تفعل لتتجمد الدموع في عينها و هي تنظر له، فأشاح بناظريه عنها و قال حاثا إياها على الحديث:

_ وماذا بعد؟

تلعثمت:

_ ماذا قلت؟

_ تابعي

هزت رأسها نفيا:

_ ليس هذا

حاول إلهاء نفسه بالأوراق التي أمامه وأجاب:

_ لم أقل شيئا سوى تابعي فأنا على موعد بمريضات وأعمال أخرى.

حاولت إقناع نفسها بأنها توهمت ما سمعت وأكملت وهي تمسح دموعها:

_ لم أعلم أنه إبني إلا بعدما انتهيت، ونظرت في أوراقه وقرأت أسمه، كنت أعلم أنه سيحدث له مضاعفات كأي حالة غيره، لكنني لم أتخيل أنه سيموت وقبل حتى أن يخرج من المشفى، خرجت

روحه أمام ناظري، رأيت سـكرات الموت للمرة الألف! إلا أنها المرة الأولى التي يهتز لها جسدي، لأول مرة ينخلع قلبي على أحد.

نظر لها وهي تتابع ولم تزل تبكي:

_ حينها خرجت ورأيت ابنه " عثمان " وزوجته لأول مرة.

خفق قلبه بشـده حينما سـمع أسـمه يخرج من بين شـفتي الانثى الأكثر كرها وحقدا عليها، فأكملت:

_ رأيت وجهيهما باكيان والمرأة تنوح على زوجها الذي قتلته أنا ...

بعدما اسـتملوا الجثة قررت الإبلاغ عما كنت أفعل وأخبرت زوجته فحاولت خنقي وأنا أحادثها فهربت ذاهبه لقسـم الشرطة وأخبرتهم عن أسـماء الأشـخاص الذين يُديرون الأمر، بل ويحصـلون منه على مكاسـب ضـخمه. فرموني بالجنون وأُلقي بي هنا، وأصـبحتُ أخضـع لجلسـات كهربـائيـة، كمـا أنـه بين الحين والأخر أغيـب عن الوعي لأستيقظ وأنا مُكبلة بأغلال من الحديد.

ثم كشفت عن ساقها لتُريه أثر تلك القبضات عليهما وهي تقول:

_ لترميني الممرضات بالصرعاء, لكن أتعلم هذا ليس بالعقاب الحق لأمثالي، فأسلمُ عقاب لي هو القتل كما قتلته.

اغرورقت عيناه بالدموع وهو ينظر لها:

_ بل العقاب الأمثل هو تمزيقكِ حيه.

ثم وقف وأعلن:

_ انتهت الجلسة سنلتقي بعد يومين، ولا تقلقي فلن أخبر أحدا بأنكِ عاقلة وتستطيعين أن تقضي ما تبقي من عقوبتكِ وراء القطبان.

ردت وهي تملي ناظريه برؤيته:

_ معك فقط أكن بتوازني فأنت تذكرُني به، لذا علىَّ أن اتعقل حتى ترتوي أرض أُمومتي بك.

فتح الباب ونادى على الأمينة التي استحبتها إلى عنبرها.

.....

عاد لبيته وأخبر أمهُ بالأمر فأخبرته أنها تريد أن تراها، زارته في المشفى اليوم التالي وأخذها للعنبر ليجداها في نوبة صرع، نظرت له والدته وتبسمت قائلة:

_ الأن فقط ارتاحَ قلبي، كم تبدو حالتها مُسليه!

ربت على كتفها وعادت معه للمكتب، أتت له ممرضـــه وأخبرته أن المدعوة "عصمت " في حالة صرع، أمرها:

_ سنقوم بإخضاعها لجلسه كهربائية وينتهي الأمر.

ثم قام واتجه للغرفة التي قد قُيدت في أحد أسرتُها، وقبل أن تبدأ الجلسة وقفت والدته بجوارها وهي تقول:

_ ألا تذكُرينني حماتيَّ المصون؟

حملقت بها وقد تذكرتها جيدا فمالت على أذنها وهمست:

_ هذا هو " عثمان " نجل " كامل "

نقلت بصرها بينهما وهي تهمس باكية:

_ كنت أعلم أنك هو فأنت تشبه والدك بشدة.

ردت الأخرى وهي تضغط على أسنانها:

_ تقصدين المغدور به.

ابعد " عثمان " أمه لتبدأ الجلسة و تبدأ اصوات الصراخ تعلو و تعلو و تبدأ سحابات عينيها في إسقاط عيثُها لتُبلل وجنتيها بقطرات حارة و هي تعض أناملها ندما و حسرة، وقف بجوار والدته و هو يحيطها بذراعيه ثم همس:

_ إنها الأن تقوم بسداد ديونها أمي فلا تقلقي.

أردفت الأم:

_ لا أريدُها أن تموت، سآتي هنا بين الحين و الأخر لأراها تسدد الدين.

ثم غادرة عائدة لبيتها، نظر عثمان لجدته وقد خفق قلبه حانيا عليها، و هو يرى الندم و الحسرة يكسوان خلجات وجهها و قد غطى الدمع وجنتيها، لكن سرعان ما ألقى بمشاعره عرض الحائط و هو يلقي أوامره:

_ استمروا في الجلسة حتى تفقد الوعي هكذا ستُصبحُ أفضل.

ثم أولاهم ظهره وغادر.

تمت بحمد الله